٢ علاقة نجد بالشام

في الفترة من ١١٥٧ إلى ١٢٢٥ هـ

بقلم الأستاذ / عبد الله حمد الحقيل

لقد تناولنا في الحلقة الأولى من هذه الدراسة، والتي ظهرت في العدد السابق عرضاً موجزاً لما واجهته الدعوة السلفية من أذى وحروب وخصومات حتى حقق الله لتلك الدعوة الظهور والانتشار رغم ما واجهته من حروب.

٣ – عهد صالح بك :

عين السلطان صالح بك واليا على الشام خلفا لأحمد باشا الجزار وقد قام صالح بك بعد تعيينه بكتابة تقرير عن مهمة الحجاز وذكر فيه أنه لا غنى عن اشتراك محمد علي باشا في دفع الوهابيين(١) عن الحجاز، لأن المهمة شاقة وليست هينة بحال من الأحوال. كما أوضح في تقريره أن طاهر باشا قد وصل الى جدة مع واليها الجديد زين العابدين باشا ومعه ألف وخمسمائة جندي لتخليص المدينة من حصار ابن سعود(١٦).

وبعد أن تطورت الأحداث، أرسل صالح بك تقريرا آخر يعزز التقرير السابق ويضيف اليه ما استجد في الموضوع. فيذكر أنه بالاضافة الى وصول المدد العسكري الذي يرأسه طاهر بك، فالأمل معقود على وصول مدد آخر من **محمد علي باشا الى المدينة المنورة**(١٧).

كل هذا يدل على أن السلطان العثماني وقع في حيرة من أمره، فمرة يكلف والي بغداد. وبعد أن يحس بالتسويف الكثير والتهرب من المأمورية، يكلف والي الشام، ووالي الشام بدوره يماطل ويماطل. ويقول كما قال والي بغداد بأنه لا غنى عن اشتراك والي مصر في المهمة ويسوق الحجج ويقدم الأعذار. ويقوم السلطان العثماني بارسال أوامره مرارا وتكرارا للضغط على هؤلاء الولاة. وقد كلف بعض الشخصيات الأخرى بالمساعدة والمعاونة في تنفيذ هذه المهمة.

٤ - عهد عبد الله باشا العظم :

وخلف عبد الله باشا العظم صالح باشا في ولاية الشام. وبعد التولية أرسل عبد الله باشا عدة رسائل الى السلطان العثماني يخبره فيها بتطورات الأمور بخصوص الاستعدادات التي تجري لمهمة الحجاز، وقد أفاد بأنه أعد كل اللوازم والمهمات لتيسير سفر **والي جدة زين العابدين باشا من الشام،** ويعد العدة لكي تسافر الجردة العسكرية المرافقة له. وقد وعد بتسهيل مهمة الحرمين الشريفين، وتيسير أمورها رغم بعض الاضطرابات القائمة في بعض مناطق الشام وصعوبة التغلب عليها بسهولة(١٨).

ولا يوجد لدينا وثائق تدل على أن عبد الله باشا العظم قام بخطوة ايجابية في سبيل مهمة الحجاز، ولكنه سافر الى الحجاز فقط كأمير للحج الشامي، والوثيقة التالية بها ملخص لعدة مراسلات بعث بها الى السلطان العثماني. وقد قام الكتاب بتلخيصها لعرضها، وتتضمن قيام عبد الله باشا على رأس الحجاج وبرفقته **والي جدة المعين زين العابدين باشا،** ولا تتضمن أي اشارة الى مواجهة عسكرية مع **ابن سعود**(١٩).

لم تتخذ التدابير اللازمة لمواجهة ابن سعود من قبل الدولة العثمانية، ولا أقدمت على خطوة عملية في هذا الصدد. وكل ما جرى من قبل والي بغداد

أو والي الشام كان بمثابة وعود براقة وامال وأحلام، لم يتحقق منها شيء ولا هي قابلة للتحقيق نظرا لثقل المسئولية وضخامة التبعات وتسويف كل منهما.

وقد **اجتمع مجلس الشورى العثماني في منزل شيخ الاسلام**. وجرى بحث الموضوع برمته من كل جوانبه. وقد تجاذب المجتمعون الحديث والنقاش وأدلى كل برأيه في هذا الصدد.

وكان النقاش حرا لم يتقيد بقيود. وقد تضاربت الأقوال والآراء وبرزت بعض الصعوبات نظرا لتعدد الآراء والحجج. وقد رجحت بعض الأقاويل الى حد ما، وتركت بعض المواضيع لكي يقررها السلطان بنفسه – ويتبين مما دار في جلسة المجلس أن الدولة العثمانية قد أصابها الارتباك والحيرة من جراء ما جرى في الحجاز، فهي لا تعرف لنفسها مخرجا من الأزمة. خاصة وان من كلفوا باجراء المهمة تنصلوا منها ووضعوا العراقيل والصعوبات في سبيل تنفيذها. دار النقاش حول تعيين قائد لجيش يخرج من الشام الى الحجاز، لاسترجاع الحرمين الشريفين من أيدي السعوديين ويرابط هناك ويكون في وضع يؤمن الصلح بينهم وبين أمير مكة الشريف غالب، مع عمل التدابير اللازمة للتوجه الى الدرعية.

غير أن المجلس تبين استحالة التوجه الى الدرعية، وان هذا من واجبات والي بغداد. وقد قرر المجلس تكليف والي بغداد بهذا العمل، في نفس الوقت الذي يتحرك فيه جيش آخر من الشام الى الحرمين الشريفين. وجرت مناقشات طويلة حول اختيار قائد لهذا الجيش الذي يتحرك من الشام. وهل يلزم أن يكون والي الشام بنفسه أم رجل عسكري آخر. وما مقدار التداخل في الاختصاصات بين مهام الرجلين؟(٢٠).

وقام **عبد الله باشا العظم** من جانبه بتقديم مقترحاته للسلطان العثماني لاستعادة الحرمين الشريفين للدولة العثمانية وعقد الصلح بين الشريف والسعوديين وتتضمن:

١ – تكليف وزير من أصحاب الثروة والجاه لايالة حلب.

٢ – تنصيب محافظ المدينة.
٣ – تكوين فرقة من ألف جندي من الخيالة والمشاة، وألف جندي آخر بقيادة ابن أحد الباشوات، ويتم تجهيز ذلك من الشام.

٤ – مرافقة والي مصر للمحمل واحضار الذخيرة من عنده.
٥ – العمل على اتمام الصلح بين الشريف غالب وابن سعود.
٦ – تسهيل تدارك الجمال باعفاء قرى الشام من التكاليف(٢١).

٥ – عهد يوسف كنج باشا :

وخلف يوسف كنج باشا سلفه عبد الله باشا في حكم الشام. وقد قام يوسف باشا بعد توليه بارسال تحريرات من قبله الى السلطان العثماني يخبره برأيه في مسألة الحجاز وبما تم من انجازات في سبيل هذه المهمة، والعقبات التي تقصر دونها بعض الاستعدادات.

كما وصلت الى السلطان تحريرات أخرى من والي بغداد علي باشا وقد أحال السلطان هذه التحريرات كلها الى مجلس الشورى لتدارس الموقف والادلاء بالرأي في هذا الخصوص. اجتمع مجلس المشورة في منزل شيخ الاسلام، وقرئت على الحاضرين تقريرات والي الشام ووالي العراق حول تطورات الوضع في الحجاز، والعقبات التي تواجه الحصول على بعض اللوازم والضروريات لمواجهة ابن سعود.

وقد ورد في تحريرات والي الشام أنه مستقل بالقيادة العامة للحجاز ولديه عساكر وذخائر كثيرة، وأنه بحاجة الى الجمال لتحميل الذخيرة. ويود أن ترسل اليه مصر الذخائر أيضا كما أنه يحتاج الى ١٨ ألف كيس من النقود. وذكر **يوسف باشا أن محمد علي باشا تعهد بامداده بالذخائر والعساكر، ولكنه انشغل بطرد الانجليز.** أما والي بغداد فلم يقدم على أي عمل كما ورد في تقريراته(٢٢).

أخذ يوسف باشا الوالي الجديد يراوغ كأسلافه ولاة الشام. فتذرع في سنة ١٢٢٢هـ بمتطلبات حرب الدرعية من المهمات والذخائر لكي يطلب من

السلطان العثماني ضم طرابلس واللاذقية وغزة ويافا وعجلون اليه، أو أن تمده الدولة العثمانية بالمال والمهمات ويؤكد أنه رغم التجهيزات والمصروفات والمهمات التي حشدها. فانها لا تكفي بل انه مازال في حاجة الى المدد(٢٣).

وبعد أن دخل آل سعود الحرمين الشريفين أرسل والي الشام يوسف باشا تقريرا الى السلطان سنة ١٢٢٣هـ مؤداه أنه اتفق مع والي مصر علي باشا (محمد على باشا) ووالي بغداد سليمان باشا ثم انه يطلب من الدولة العلية تأمين المهمات المطلوبة له للتحرك، بعد أن وافق والي مصر ووالي بغداد على التحرك في نفس الوقت. ويستعجل والي الشام تنفيذ طلباته حتى يمكنه التحرك قبل حلول موسم الحج(٢٤).

وعاد والي الشام يطالب ببعض مناطق الشام لتسهيل مهمته، فطالب بغزة ويافا، لكي يتمكن من نقل الذخيرة والسلاح الى الحجاز، وينبه الى أن مسألة النقل تستلزم وقتا طويلا، نظرا لطول المسافة وصعوبة اجتياز الصحراء(٢٥).

وفي الوقت الذي بدأت فيه الدولة العثمانية تعد العدة لمحاربة ابن سعود، نقض الروس عهدهم مع الدولة وقاموا بمهاجمة بعض المناطق التابعة لها.

وقد قام والي الشام – تنفيذا لأوامر الدولة العثمانية بمواجهة السعوديين – بالاتصال بوالي جدة الشريف غالب ووالي مصر محمد علي باشا الذي وعد باكمال استعداداته خلال ثمانية أشهر.

وقد طلب **يوسف باشا** من الدولة العثمانية أن تبادر بمراسلة الشريف لضرورة الموافقة على دخول عسكر الشام الى الحجاز قبل التحرك(٢٦).

ووردت رسائل وتقارير من والي الشام يوسف باشا عن الحالة في الحجاز وعن ابن سعود، وقد قام الصدر الأعظم بتقديم خلاصة هذه المراسلات الى السلطان العثماني. وهي تتضمن انتشار وباء الطاعون في الجزيرة العربية. كما تتضمن تعيين الصدر الأعظم السابق يوسف ضياء باشا سردارا على الحجاز (٢٧).

توالت التقارير من **يوسف كنج باشا** عن الحالة في نجد وعن العربان الذين هاجمهم والي بغداد، فلجأوا الى الشام وتعقبهم والي الشام، فارتدوا الى بغداد مرة أخرى. ويقترح يوسف باشا في نهاية تقرير له أن تتحرك العساكر الى الدرعية من ثلاث جهات(٢٨).

وأرسل والي الشام عدة رسائل الى السردار الأكرم يعلن حاجته الى الذخيرة لمهمة الحرمين وينبىء عن استعداد والي مصر وترحيبه بارسال الذخيرة. ويطلب التأكد من تنفيذ والي مصر لتعهده، والكتابة اليه(٢٩).

وبدأت مراوغة والي الشام يوسف كنج تتضح شيئا فشيئا، فهو يراو غ بعد أن تعهد له محمد علي بامداده بالذخيرة، ويطلب من الدولة العلية ايضاحات عن نقل الذخائر لجيشه وعن رضى الشريف غالب عن نزول عساكر محمد علي في الحجاز (٣٠).

وصول السعوديين الى الشام :

لا شك أن الدعوة السلفية قامت لتنتشر في الآفاق ولم تقم لكي تقبع في نجد أو في الجزيرة العربية فقط. فهي دعوة اصلاحية لتصحيح الأفكار والمعتقدات التي بعدت عن مسار الاسلام الصحيح، بسبب تفشي الفوضى والخزعبلات والاعتقادات الباطلة التي لا تتفق وروح الاسلام.

كان الهدف اذا نشر الدعوة داخل الجزيرة العربية وخارج نطاقها في البلاد المجاورة أولا...

كانت الشام كما كانت العراق من قبل مستهدفة، لنشر الدعوة السلفية في أرجائها وقد اتبع **الامام سعود بن عبد العزيز في البداية طريق السلم**، فدعا والي الشام كما دعا والي بغداد من قبل الى اتباع الدين الاسلامي الصحيح والسير على هداه. ولما لم يعر والي الشام هذه الدعوة أذنا صاغية، وبدأ يستعد لمواجهة السعوديين في الحجاز لمحاولة ربطهم الى التبعية العثمانية، كان على الامام سعود أن يتوجه لنقل المعركة الى أرض الشام قبل أن يداهمه والي الشام في الحجاز.

وتفيض الوثائق في ذكر الارتباك الذي اعترى والي الشام يوسف كنج باشا بعد أن علم بتحرك السعوديين نحو بلاده من الشيخ صقر وقام بتقوية القلاع والاستعداد للمواجهة المرتقبة، وفي ذهنه هزيمة والي بغداد وقواته أمام السعوديين في كربلاء والنجف(٣١).

وأرسل يوسف كنج رسالة أخرى الى السلطان يخبره فيها بأن والي بغداد نصحه بأن يؤخر القوافل حتى لا تتعرض للأخطار لأن ابن سعود قد تحرك قاصدا الشام.

كما اطلع السلطان على كافة استعداد **قادة اللاذقية وطرابلس وحماه وحمص والقدس لأي مفاجأة** وارساله الجواسيس الى كل الأنحاء والي المضايق والمعابر لمراقبة الوضع في تلك المناطق عن كثب منعا للعواقب التي تحدث من جراء المفاجأة والمباغتة(٣٢).

ثم كان لقاء الجيش جيش الشام وجيش ابن سعود عند مزيريب، وحدثت بينهما معركة حامية سقط فيها قتلى كثيرون من الطرفين. **وانضم الى السعوديين كثير من عربان الشام أثناء اجتيازهم صحراء الشام**. وقد رجع ابن سعود من هذه المعركة بعد أن أبلى فيها بلاء حسنا وحقق بعضا من أهدافه، وهو نشر الدعوة السلفية في المناطق المجاورة(٣٣).

وبعد أن دخل **الامام سعود بن عبد العزيز الشام** ووصل في أراضيها حتى شمال مزيريب، وأصبح له أتباع كثيرون في هذه المناطق، قام سليمان باشا والي صيدا بتأمين الذخيرة وكذلك الحنطة والشعير والذرة من عكا وصيدا ويافا وأرسلها الى استانبول. كما تسلم الأموال المقتضبة الأداء من صيدا عن سنة ١٢١٩ – ١٢٢٤هـ، ونبه الى صعوبة الحصول على الذخيرة من غزة والرملة، نظرا لظروف هجرة معظم السكان وقلة الأمطار التي أدت الى النقص في المحاصيل. ثم يتعهد بأن يقف في مواجهة الامام سعود بن عبد العزيز اذا ما عاد الى الشام مرة أخرى(٣٤).

ولما يئس السلطان من كثرة مراوغة يوسف كنج عزله من منصبه، وعين مكانه سليمان باشا والي صيدا، كما كلفه بسردارية الحجاز.

كان موقف سليمان باشا كموقف أسلافه تماما، وعد بتنفيذ المهمة ثم أخلف الوعد، وأخذ يراوغ حتى يئس السلطان من كثرة مراوغته ودهائه، وقرر في النهاية أن يضغط على محمد علي باشا، لكي ينفذ المهمة الشاقة التي تخلى عنها ولاة الشام، كما تخلى عنها ولاة بغداد من قبل. والهدف هو هو محاولة تحطيم الدعوة السلفية ولكنها بقيت مشرقة مضيئة يبهر سناها كل الحاقدين وأعداء الاسلام وستظل شريعة الله نورا وهاجا تضيء المسالك والدروب لجميع المؤمنين.

الهوامش

(*) الوهابيون اصطلاح أطلقه خصوم الدعوة السلفية ممن لا يعرفون حقيقة الدعوة وأهدافها النبيلة ومقاصدها السامية.

(١٦) انظر الوثيقة رقم ٢ /٢م /٦ من مقتنيات الدارة.
(١٧) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١٤٩ من مقتنيات الدارة.
(١٨) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /٤٢ من مقتنيات الدارة.
(١٩) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /٤٣ من مقتنيات الدارة.
(٢٠) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /٥٧ من مقتنيات الدارة.
(٢١) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /٥٨ من مقتنيات الدارة.
(٢٢) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /٦٢ من مقتنيات الدارة.
(٢٣) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٨٦ من مقتنيات الدارة.
(٢٤) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٩٣ من مقتنيات الدارة.
(٢٥) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١١٦ من مقتنيات الدارة.
(٢٦) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٢٥ من مقتنيات الدارة.
(٢٧) انظر الوثيقة رقم ١ /٢ /١٧٠ من مقتنيات الدارة.
(٢٨) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١٠ من مقتنيات الدارة.
(٢٩) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١٧ من مقتنيات الدارة.
(٣٠) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٢٧ من مقتنيات الدارة.
(٣١) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١ من مقتنيات الدارة.
(٣٢) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٢٩ من مقتنيات الدارة.
(٣٣) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /٣١ من مقتنيات الدارة.
(٣٤) انظر الوثيقة رقم ٤ /٦ /١٠ من مقتنيات الدارة.